في قداسة الكنيسة

للاب ارمند اودين ، احد كهنة رهبنة قلب يسوع الاقدس*

١ً ما هي القداسة الواجب ان تمتاز بها كنيسة المسيح ؟ — ٢ً هل توجد هذه القداسة ، في الكنائس المنفصلة عن الكثلكة ؟ — ٣ً وجودها وسطوعها في الكثلكة. — ٤ً ردّ الاعتراضات .

١

ما هي القداسة التي يجب ان تمتاز بها كنيسة المسيح ؟

من اشرف واهم العلامات التي اراد الله ان تمتاز بها الكنيسة الحقيقية ، عن كل ما سواها ، القداسة ؛ لان الكنيسة ليست الا جماعة اقيمت لتكميل عمل فداء البشر ، وهو العمل الذي نزل ابن الله من السماء لاجله ، وتجد وبذل ذاته ضحيّة عنه ، وبالتالي قد اقيمت لتعليم الناس الصراط الذي يوصلهم الى الخلاص ، ولتطهير انفسهم من نجاسات الخطايا ، ولصيرورتهم اعضاء حيّة لذلك الجسد السرّي ، الذي رأسه هو المسيح . وكيف تقدر الكنيسة على تحصيل تلك الغايات ، ان لم يكن الروح القدس حاضرًا فيها ، ومزاولًا قوته بتلك المواهب الالهية والمفاعيل العجيبة التي نعبّر عنها بقولنا : ان الكنيسة هي مقدسة . فان هذه العبارة تدل على شيء مفرز من كل ما هو دنس وذليل ، وعلى شيء متحد بالله اتحادًا وثيقًا وجزيل الافادة لتمجيده تعالى ، ولحثّ الناس على محبته وعبادته . فلا شكّ اذن في ان المسيح اراد ان تكون كنيسته مقدسةً ، وهذا ما يؤكده رسوله حيث يقول : « ان المسيح احب كنيسته ، وبذل نفسه عنها ، ليقدسها ويطهرها ، فتكون له كنيسةً مجيدةً ، لا عيب فيها ولا دنس ، بل هي مقدسة وجميلة » (افس ٥ : ٢٥—٢٧)

وتعلم ان المخلص نفسه ، في اثناء صلاته لاجل تلاميذه ، بعد العشاء السرّي ، سأل اباه السماوي ان يقدّسهم ويصونهم من كل شرّ ، ويجعلهم واحدًا في محبته (يو : ١٧) واعتبر ايضاً ما قاله لهم قبل ان يفارقهم بصعوده

*) صحح عبارته ، وعني بنشره الفس اسطفان فرحات اللبناني .

الى السماء ، ها انا معكم على الدوام ، الى انقضاء العالم . فان هذه الكلمات تتضمن وعداً منه عزّ وجل ، بان يعطي كنيسته ، في كل زمان ، جميع المواهب الروحية اللازمة لها ، لتقوم بمهمتها . فتبلغ البشر الى الخلاص الابدي . واكثر هذه المواهب ضرورةً هي القداسة . فان الله اذاً يريد ارادةً صريحة ومطلقة ، ان تتلألأ كنيسته دائماً ببهاء القداسة .

واذن ما هي هذه القداسة التي لا يجوز ان تختار من جمالها بيعة الله المسيح؟ هل تتصورها منافيةً لكل عيب في المؤمنين ، حتى يصبحوا اشبه بالملائكة منهم بالبشر ؟ كلّا ، فان وجود جماعة كهذه على الارض ، لا يمكن الا باحدى المعجزات العظيمة التي يقدر الله على اجرائها . ولم يعد الله بمثل هذه الاعجوبة ، بل ولم تكن لازمة لبلوغ غاية الكنيسة . وتاريخها يشهد بان اعضاءها ، لم يكونوا قط كلهم قديسين ، فتمّ فيها بذلك ما تنبأ به مؤسسها الالهي ، بمثل الشبكة الملقاة في البحر ، والجامعة بين جيّد السمك ورديئه (متى ١٣ : ٤٧–٤٩) وبمثل العذارى اللواتي كان بعضهنّ حكيمات ، والبعض الآخر جاهلات (متى ٢٥ : ١–١٣) ورعاة الكنيسة انفسهم لم يزدانوا جميعاً بالقداسة ، بل سمح الله بان تكون عيوب وشكوك في كل مراتب السلطة الكنسية ، كما سمح بسقوط احد الاثني عشر رسولاً .

لكن القداسة الكافية لتميز كنيسة المسيح هي التي يبين لنا وجودها في جماعة النصارى الأولين كتابُ اعمال الرسل ، وزاها قائمة بثلاث صفات : اولاها : محافظة الرسل على تعليم يسوع المسيح ، وسعيهم في اقتياد الجميع الى قبوله واتباعه . ثانيتها : ازدهار اجمل الفضائل واعجبها في عدد كثير من المؤمنين ، وهذا بتأثير كلام الرسل في قلوبهم . ثالثها : اجراء الله ما كان لازماً من المعجزات لتأييد كلام الرسل ، واعلان صحة تعليمهم . فحيثما ظهرت لنا هذه المعالم متقارنةً في اي جماعة كانت ، وجب علينا القول : ان هذه الجماعة هي مقدسة ، اي انه تعالى يعضدها ويعمل فيها ، وانها تفيد الناس وتعينهم على ان يصيروا صديقين في هذه الدنيا ، ومثبوطين في الاخرى . هكذا نرى في كتب الآباء الاجلاء انهم فهموا قداسة الكنيسة . فانهم برهنوا عليها تارة

يذكر تعليمها الذي لم يزل تعليم المسيح بعينه ، غير ممزوج بشيء من الآراء البشرية ، والاضاليل الوخيمة ؛ وطوراً بمديح ما يلمع في الكنيسة من فضائل الكثيرين من ابنائها على اختلاف ما عاشوا فيه من الازمنة والبلدان وسائر الظروف ؛ وحيناً بتبيان ما صنعه الله ، ولا ينفكّ عن صنعه ، من الآيات المتنوّعة تأييداً لتعليم الكنيسة ، وتمجيداً لبعض بنيها ، الذين بلغ ايمانهم وطهارة سيرتهم اسمى درجة . فاذاً ، ان هذه الادلة الثلاثة هي التي نعدّها شروطاً لازمة ليجوز القول عن جماعة انها مقدسة ، وبالتالي نطلب ان نشاهدها محققة في المجتمع الذي يعترف بكونه كنيسة المسيح الحقيقية.

٢

هل توجد القداسة في الكنائس المنفصلة عن الكثلكة ؟

قد مرّ بك ان القداسة ، التي يسوغ ان نتطلبها في كنيسة المسيح ، تقوم بتلك الصفات الثلاث المذكورة ، وذلك تمييزاً لها عن غيرها . فان كان الامر كذلك ، فاي اثر للقداسة يظهر لنا في الكنائس التي انفصلت عن الكثلكة ؟

على ان بعضها قد غيّرت تعليم المسيح ، وبدلته ، او خلطته بآراء جديدة ، صار بها مذهبها مختلفاً جداً عما اعتقدته كنيسة القرون الاولى . وهذا العيب يظهر خاصةً في الشيع البروتستانية التي تأسست على مبدأ حرية الفرد في تأويل الاسفار الالهية ، مع رفض التقليد والسلطة الكنسية . ولا يخفى على احد ما اتى به هذا المبدأ من الثمار الوخيمة . فان متبعيه انقسموا الى بدع لا تُحصى عددها ، وانتهى بعضهم الى انكار اهمّ الحقائق الدينية ، او الارتياب فيها . فواضح اذن ان الكنائس البروتستانية لم تحافظ على تعليم المسيح ، واذن فليست مقدسة .

غير ان هذا الحكم ، لا يقع على الكنائس الشرقية التي تسمى ارثوذكسية وتفتخر بثباتها في الايمان بكل ما اعتقده مؤمنو الاجيال الاولى . ولكن بأي طريقة نرى تعليم المسيح محفوظاً في تلك الكنائس ؟ هل يدرسه كهنتها حتى يتضلّعوا منه فيتمكنوا من تهذيب الشعب فيه ؟ او هل يعتني رعاتها بصيانة رعيتهم من ضرر الجهل الديني ؟ وهل يثابر خوارنتها على ارشاد بنيهم

الروحيين بالمواعظ الخلاصية ؟ وهل يقوم فيها بعض اصحاب العلم والغيرة لمناصبة التعاليم الفاسدة التي يسمى البروتستان والزنادقة في نشرها، محاولين تقويض اركان الايمان المسيحي ؟ فليجاوب عن هذه الاسئلة المطلعون على حقيقة احوال الكنائس الشرقية . ونخاف جداً ان كل قارئ ملمّ بما يبيّنه التاريخ ، وما يعرضه على انظارنا الاختبار اليومي ، يُضطر الى الاعتراف بان ذلك كله ينقص الكنائس المنفصلة نقصاً يُرثى له جدّ رثاء . فليس التعليم الالهي اذاً محفوظاً فيها ، الا كحرف مهمل يُكتب ولا يُقرأ.

هذا ما يجب قوله ، بالرغم من اسفنا الشديد ، في الصفة الاولى المستلزَمة ، لتحسب احدى الكنائس مقدسة . وماذا نقول الآن في الصفة الثانية ، وهي سطوع الفضائل العجيبة في قوم من ابناء تلك الكنيسة التي تدّعي بكون مؤسسها هو المسيح . وهنا ربّ معترض يزعم ان البحث متعذر في هذا الموضوع، لان الفضيلة تستتر في بواطن النفس ، فلا يقدّر درجتها سوى الله الذي يبدو له كل خفي . فنجيب مقرّين بعجزنا — في الغالب — عن تقدير درجات الفضيلة ، فربما ارتقى منها الى سموّ فائق من لم يلتفت احد اليه . ولكن للفضيلة علامات ، كما للرذيلة ، تكفي لتمكننا من التمييز بين اصحابها ، ومن معرفة ما اذا كان في جماعة ما عدد كبير ممن يتلألأ فيهم كمال التقوى وطهارة السيرة . فاذا استفهمنا التاريخ عن احوال الكنائس المنفصلة ، فبماذا يجيبنا ؟ وكم قديساً ظهر فيها ، منذ آن انفصالها ؟ نعم ان القديسين كثروا قديماً في الاقطار التي تسود فيها اليوم المذاهب الغير الكاثوليكية ، فيجوز للانكليز مثلاً ان يفتخروا باجواق النساك التي ازهرت في جزيرتهم حين استحقت ان تلقب بجزيرة القديسين . وكذلك للالمان ان يذكروا ويعظموا نموذجات القداسة العجيبة التي ازدانت بها بلادهم ، في القرون الوسطى . واكبر فخر ايضاً للشرقيين ، ان يكونوا ابناء تلك البلاد الشريفة التي وُلد فيها قدوس القديسين ، وامه الكلية الطهارة ، ورسله ، وغيرهم عدد كبير من الشهداء ، ومعلمي الكنيسة والرهبان والنساك الذين طار صيت محامدهم في كل العالم ، واعتادت كنائس الشرق والغرب ان تكرمهم وتستشفعهم ، ولم تزل فيها كتب اولئك الآباء

الشرقيين محفوظة ومعتبرة جداً ، فتروق المكبين على مطالعة الدروس اللاهوتية العالية ، وهم آباؤنا في الايمان الذين خلدوا مجد اسمائهم بما جاهدوا به من التيقظ والتجلد ضد مساعي المبتدعين ، فما اجزل الشرف واحسن البهاء اللذين اكسبك اياهما قديسوك القدماء ايتها الكنيسة الشرقية ! ان هذا المتاف لهو بفم كل من يراجع تاريخ تلك الازمنة البعيدة سواء كان شرقياً او غربياً . غير ان هذا التعجب يقترن بامرّ التأسف الذي متابلتنا بين تلك الحوادث الماضية ، وبين الحالة الحاضرة . فاننا نرى الآن المقم حيث كان الخصب ، والجمود حيث كانت الحياة . فتزر عدد القديسين هناك ، وقد كانوا كثيرين ، في القرون الاولى . فمن له ان يتأمل هذا التغير الغريب دون ان يعتريه الحزن والغمّ ! وكأني به يسأل نفسه : لماذا ضعفت الحياة في تلك الكنائس التي ظهر فيها قديماً كمال النضارة ، وملءُ النضارة ، وكيف اصبحت ، ايتها الكنيسة اليونانية ، قاصرةً عن توليد قديسين كثيرين ، ينضمون الى صفوف ابنائك الذين أعلوا شأنك في العصور الاولى ؟ فاي متى يا ترى ابتدأت حالة المقم هذه المكدّرة ؟ أليس في أوان الانشقاق ؟ بلى ! ، لان اليوم الذي ادّعت فيه الكنائس الشرقية باستقلالها عن الكرسي البطرسي ، انما هو بدء تضاؤل القداسة ، وقد كان ابطالها من قبل كثيرين ، ككثرة الثمار الجميلة على غصون الاشجار .

وماذا نقول الآن ، اذا أجرينا الكلام على الاسرار المقدسة التي وضعها يسوع المسيح في كنيسته كاقنية روحية تجري بها نعمه الى انفس المؤمنين ؟ اننا نلاحظ ، من هذا الوجه ايضاً ، فرقاً عظيماً بين الكنائس الشرقية وشيع البروتستان . فانه من اشنع اضاليل هذه الجماعات أنها نبذت اغلب تلك الاسرار الجليلة ، وباجهد حافظت على السرّ الذي هو اشد مما سواه ضرورةً للخلاص الابدي ، اعني به العماد . ويظهر ايضاً ان قوماً من البروتستان قد غيروا طريقة العماد تغييراً يحول دون صحته .

فلله الحمد والشكر على انه لم يسمح بان يصيب مثل ذلك الكنائس الشرقية . وخاصةً الكنيسة اليونانية ، التي لم يرتب احد حتى اليوم في صحة

عمادها ، وكهنوتها ، وباقي اسرارها . ولكن هل يكفي وجود هذه الاسرار ، في جماعة ، ليسوغ القول ، انها جماعة مقدسة ؟ كلا ! لان الاسرار وان كانت دائماً بذاتها أدوات المية ، قادرة على تقديس النفوس ، فانها مع ذلك لا تقدّس سوى من يقبلها بحسن الاستعداد . ومن ذا الذي يحصل على هذا الاستعداد الجيد الا من تعلم ان يُحيي الايمان في نفسه ، وان يطهّر قلبه بالندامة . ولا يخفى ان هذا التأهب ضروري ، خصوصاً لقبول سر التوبة . فان حلّة الكاهن ، لا تفيد شيئاً من لم يحرّك نفسه على بغض جميع خطاياه المميتة ، وكيف يُرجى ان يستمدّ لذلك من لم يتعلم شيئاً من المبادئ الدينية ، وهو لم يُلقَ عليه قط ارشاد روحي ، فلا يدري ما هي الندامة ، ولا يخطر في باله وجوبها ، ولم يتعوّد الا تلاوة بعض نوافل روحية وعبادات ظاهرة ، كرسم اشارة الصليب ، وانحناء الرأس ، وما اشبه ذلك . فاي ثمرة يمكن ان يجنيها هذا المسكين من اعترافه ، ومن حلّة الكاهن ؟ واحسرتاه ! ! ان هذا الجهل والعمى لهما حالة اغلب المنفصلين ، فنتيجة ذلك واضحة بقدر كونها مؤلمة ومزعجة . اي ان ما يقبلونه من الاسرار لا يكاد ينفع لتقديس انفسهم ، ولخلاصهم الابدي .

بقي ان نتكلم عن المعجزات في الكنائس المنفصلة عن الكثلكة ، فهل يجري فيها شيء من ذلك ، وتاريخها ساكت عن هذا الامر ؟ اللهم الا بعض حوادث خارقة العادة ، قد نشر خبرها . ولا ننكر احتمال صحتها الا اننا نتمنى ان يُجرى ، لكل واحد منها ، تحقيق مدقّق . وان ثبت ان هناك آيات حقيقية ، نقول ان الله صنعها جزاء لفضل بعض الذين يعبدونه في تلك الكنائس بسلامة النية ، كما نزعم انها حال كثيرين . ولكن هل تكفي حوادث قلائل كهذه اعلاناً لقداسة مذهب من تنت على يدهم ؟ كلا . فانه سبحانه وتعالى ، يوزع مواهب نعمه كيفما شاء وحيثما اراد ، فلا بأس اذن في ان يغدق منها شيئاً على بعض خدامه المستقيمي النية ، وان كانت الكنيسة التي ينتمون اليها منفصلةً عن تلك التي انشأها يسوع المسيح ، وهم بذلك غير دارين .

(له صلة)